(**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)**) .

[آل عمران : ١٨٥] .

(**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**) يخبر تعالى إخبارًا عامًا يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت .

- **قال السعدي** : هذه الآية الكريمة ، فيها التزهيد في الدنيا بفنائها ، وعدم بقائها ، وأنها متاع الغرور ، تفتن بغرورها ، وتغر بمحاسنها ، ثم هي منتقلة ، ومنتقل عنها إلى دار القرار ، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر .

قال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) .

وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) .

فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولاً .

- قوله تعالى (فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) المراد بها الحصون التي في الأرض المبنية ، لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة ، وهذا قول الأكثر [قاله القرطبي] ، **وقيل** : المراد بالبروج بروج مبنية في السماء ، لكن هذا القول ضعيف ، لأن الله قال (مشيّدة) وهذا الوصف لا يكون أبداً للبروج السماوية ، وإنما يكون للقصور العالية . [قاله الشيخ ابن عثيمين] .
- كل ابن أنثى وإن طالت سلامته .... يوما على آلة حدباء محمولُ

الموت : لا يرحم صغيراً ، ولا يوقر كبيراً ، ولا يخاف عظيماً ، لا يستأذن على الملوك ، ولا يلج من الأبواب .

تزود من الدنيا فإنك لا تدري .... إذا جن ليل هل تبقى إلى الفجر

الموت : يموت الصالحون ويموت الطالحون ، ويموت المجاهدون ويموت القاعدون ، يموت مريدوا الآخرة ، ويموت مريدوا الدنيا .

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب .... متى حط عن نعشه ذاك يركب

إنه جدير بمن الموت مصرعُه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده ، أنْ لا يكون له فكر إلا في الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تأهب إلا له .

قال الحسن : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي عقل عقلا .

قال بعض العلماء لأحد إخوانه :احذر الموت في هذه الدنيا قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده .

قال أبو الدرداء : إذا ذكرت الموت فعد نفسك أحدهم .

قال الدّقاق : من أكثر من ذكر الموت أُكرِمَ بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضا بالكفاف ، والتكاسل في العبادة) .

قالت عائشة لامرأة : أكثري ذكر الموت يرق قلبك .

وقال الأوزاعي : من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ، ومن عرف أن منطقه من عمله قل كلامه .

وقال ثابت البناني : ما أكثر أحد ذكر الموت إلا رؤي ذلك في عمله .

وقال ابن عجلان : من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا

وقال إبراهيم التيمي : شيئان قطعا عني لذة الدنيا : ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله .

وقال الحسن : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا .

وقال الحسن : ما ألزم عبد ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عنده .

وقال أبو الدرداء : من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده .

وقال سعيد بن جبير : لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد عليّ قلبي .

وقال الأوزاعي : من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير .

وقال الثوري : لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون ما أكلتم منها سمينا .

وقال الحسن بن عبد العزيز : من لم يردعه القرآن والموت ، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع .

وقال أبو نعيم : كان الثوري إذا ذكر الموت لم يُنتفع به أياماً، وفي الحديث : أكثروا ذكر .

وقال بعضُ السَّلف : ما نمتُ نوماً قط ، فحدثتُ نفسي أنِّي أستيقظ منه .

وكان حبيبٌ أبو محمد يُوصي كُلَّ يومٍ بما يوصي به المحتضِرُ عند موته من تغسيله ونحوه ، وكان يبكي كلَّما أصبح أو أمسى ، فسُئِلَت امرأته عن بكائه ، فقالت : يخاف – والله – إذا أمسى أنْ لا يُصبح ، وإذا أصبح أنْ لا يُمسي .

وكان محمد بن واسع إذا أراد أنْ ينام قال لأهله : أستودعكم الله ، فلعلَّها أنْ تكون منيتي التي لا أقوم منها فكان هذا دأبه إذا أراد النوم .

وقال بكر المزني : إنِ استطاع أحدُكم أن لا يبيت إلا وعهدُه عند رأسه مكتوبٌ ، فليفعل ، فإنَّه لا يدري لعله أنْ يبيتَ في أهلِ الدُّنيا ، ويُصبح في أهلِ الآخرة .

وكان أويسٌ إذا قيل له : كيف الزمانُ عليك ؟ قال : كيف الزمانُ على رجل إنْ أمسى ظنَّ أنَّه لا يُصبحُ ، وإنْ أصبح ظنَّ أنَّه لا يمسي فيبشر بالجنة أو النار ؟

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ------ إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة ------ وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ---- وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ------- وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر

وكم من عروس زينوها لزوجها ---------- وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

فمن عاش ألفا وألفيـن ----------فلا بد من يوم يسير إلى القبر

قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ، ويهون المصائب فيها .

وقال التيمي : شيئان قطعا عني لذة الدنيا : ذكر الموت ، وذكر الموقف بين يدي الله تعالى .

ونظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ، فبكى وقال : والله لولا الموت لكنت بكِ مسروراً .

الموت بابٌ وكلُ الناس داخلُه .... يا ليت شعري بعد البابِ ما الدارُ

قال الشاعر :

هو الموتُ ما منه ملاذ ومهرب متى حط ذا عن نعشه ذاك يركبُ .

وقال الآخر :

الموت بابٌ وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدارُ .

كفى بالموت مقرحاً للقلوب ، ومبكياً للعيون ، ومفرقاً للجماعات ، وهادماً للذات ، وقاطعاً للأمنيات .

إنه جدير بمن الموت مصرعُه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ،والقيامة موعده، والجنة أو النار موعده ، أنْ لا يكون له فكر إلا في الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تأهب إلا له .

- ينبغي الاستعداد للموت بالعمل الصالح .

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

قال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وحياتك قبل موتك ، وصحتك قبل مرضك ، وحياتك قبل موتك ، وفراغك قبل شغلك) رواه الحاكم .

وقال ابن عمر : إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك) رواه البخاري .

وقال ﷺ (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ) رواه مسلم .

وقد نقل النووي تفسير جملة (أو خاصة أحدكم) بأنها الموت يأتي فيحول بين المرء وبين العمل حتى يتمنى المرء أن يرجع إلى الدنيا ليتمكن من عمل صالح طالما أعرض عنه في دار الدنيا.

وقال عونُ بنُ عبد الله : ما أنزل الموتَ كُنْهَ منْزلته مَنْ عدَّ غداً من أجله . كم من مستقبل يوماً لا يستكمِلُه ، وكم من مؤمِّل لغدٍ لا يُدرِكُه ، إنَّكم لو رأيتم الأجلَ ومسيرَه ، لأبْغَضتُم الأمل وغُرورَه ، وكان يقولُ : إنَّ من أنفع أيام المؤمن له في الدنيا ما ظن أنَّه لا يدرك آخره .

وكانت امرأةٌ متعبدة بمكة إذا أمست قالت : يا نفسُ ، الليلةُ ليلتُك ، لا ليلةَ لكِ غيرها ، فاجتهدت ، فإذا أصبحت ، قالت : يا نفس اليومُ يومك ، لا يومَ لك غيره فاجتهدت .

وقال بكرٌ المزنيُّ : إذا أردت أنْ تنفعَك صلاتُك فقل : لعلّي لا أُصلّي غيرها ، وهذا مأخوذٌ مما رُوي عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قال (صلِّ صلاة مودّع) .

وأقام معروفٌ الكرخيّ الصّلاةَ ، ثم قال لرجل : تقدَّم فصلِّ بنا ، فقال الرجل : إنِّي إنْ صليتُ بكم هذه الصلاة ، لم أُصلِّ بكم غيرَها ، فقال معروف : وأنتَ تحدِّث نفسك أنّك تُصلّي صلاةً أخرى ؟ نعوذُ بالله من طولِ الأمل ، فإنَّه يمنع خيرَ العمل .

وطرق بعضُهم بابَ أخٍ له ، فسأل عنه ، فقيل له : ليس هو في البيت ، فقال : متى يرجع ؟ فقالت له جارية من البيت : من كانت نفسُه في يد غيره ، من يعلم متى يرجِعُ .

(**وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي : تعطون أجوركم جزاء أعمالكم وافياً يوم القيامة .

(**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**) أي : من جنب النار ونجا منها ، وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز ، بنجاته من العذاب الأليم ، ووصوله إلى جنات النعيم ، التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

- ومفهوم الآية أن من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة فقد شقي شقاء لا سعادة بعده .

(**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**) تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة .

- قوله تعالى (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) هي هذه الحياة التي نعيشها التي قبل الآخرة ، وسميت لدنيا لسببين :

السبب الأول : لأنها قبل الآخرة في الزمن .

السبب الثاني : لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة . كما قال تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء) رواه الترمذي ، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري .

فمتاع الدنيا يزول ، أو أنت تزول عنه ، وكذلك نعيمه فهو قليل بالنسبة لنعيم الآخرة .

قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا مَتَاعٌ) .

وقال تعالى(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) .

وقال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وفي الحديث (واللهِ ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِسُ أحدُكم إصبعه في اليَمِّ، فلينظر بِمَ تَرْجِع إليه) .

قال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) .

وقال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) .

وقال تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) .

- ففي هذه الآية حقارة الدنيا وخستها ، وأنها متاع زائل .

كما قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) .

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

وقال القرطبي : متاع : أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول . ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود .

قال ابن رجب: وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع : هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى .

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها ، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها ، فتتبدل صحتها بالسقم ، ووجودها بالعدم ، وشبيبتها بالهرم ، ونعيمها بالبؤس ، وحياتها بالموت ، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم : هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما يأكله الدود غدا كان الإمام أحمد رحمه الله يقول : يا دار تخربين ويموت سكانك .

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ...) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي .

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله : ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر .

وقال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور) .

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر ، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده رضي الله عنه وأرضاه ، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور ، قال الإمام النووي رحمه الله في معنى الحديث (لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه) .

من أقوال السلف :

قال موسى عليه الصلاة والسلام : الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها .

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه : من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً .

وقال : مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم : مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتؤمّلون ما لا تأخذون ، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً ، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد .

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل : ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا .

وقال ابن القيم : لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة .

وقال : الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، والسير في طلبها كالسير في أرض مسبعة – أي كثيرة السباع – السباحة فيها كالسباحة في غدير التمساح .

الفوائد :

١- إثبات الموت لكل حي .

٢- وجوب الاستعداد للموت قبل وقوعه .

٣- الحساب والجزاء كاملاً يوم القيامة .

٤- إثبات الجزاء والحساب .

٥- أن من نجا من النار ودخل الجنة فقد فاز .

٦- الشقاء لمن كان من أهل النار .

(**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)**) .

[آل عمران : ١٨٦] .

(**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**) كقوله (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) أي: لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه، إن كان في دينه صلابة زيد في البلاء .

عن أبي هريرة ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ (مَا يَزَالُ البَلاَءُ بالمؤمِنِ وَالمؤْمِنَةِ في نفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَة) رواه الترمذي .

وعنه . قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْه) رواه البخاري .

- **قال ابن رجب** : في فوائد البلاء :

تذكير العبد بذنوبه فربما تاب ورجع .

زوال قسوة القلوب وحدوث رقتها .

انكساره لله وذلهِ وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة.

أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق .

أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه أو الرضا به.

قال بعض السلف : إن العبد ليُمرَض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له .

وقال بعض العلماء : في بعض الكتب السابقة إن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه .

- **وقال القاسمي** : وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام ، رحمه الله تعالى، كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا.

قال عليه الرحمة : للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس :

أحدها : معرفة عز الربوبية وقهرها .

والثانية : معرفة ذلة العبودية وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده ، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه .

والثالثة : الإخلاص لله تعالى ؛ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه ، ولا معتمد في كشفها إلا عليه (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) .

الرابعة : الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ) .

الخامسة : التضرع والدعاء (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا) (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) .

السادسة : الصبر عليها ، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) وقال (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

السابعة : تمحيصها للذنوب والخطايا .

قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) .

الثامنة : معرفة نعمة العافية والشكر عليها .

فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها .

التاسعة : ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها .

العاشرة : ما في طيّها من الفوائد الخفية .

قال تعالى (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) .

وقال تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم كان في طيّ تلك البلية أن أخدمها هاجر. فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين ، فأعظم بذلك من خبر كان في طي تلك البلية .

الحادية عشرة : إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر .

فإن نمرود ، لو كان فقيراً سقيماً ، فاقد السمع والبصر ، لما حاجّ إبراهيم في ربه ، لكن حمله بطرُ الملك على ذلك ، وقد علل الله سبحانه وتعالى مُحاجّته بإتيانه الملك ، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) وقال تعالى (وَمَا نَقَمُوا إِلّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) .

الثانية عشرة : الرضا الموجب لرضوان الله تعالى ، فإن المصائب تنزل بالبَرّ والفاجر ، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة ، ومن رضيها فله الرضا والرضا أفضل من الجنة وما فيها ؛ لقوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي : من جنات عدن ومساكنها الطيبة.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية : أن الصبر على أذى الخلق أفضل من الانتقام منهم .

(**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً**) من الطعن فيكم ، وفي دينكم ، وكتابكم ورسولكم .

- فمن صور الأذى التي يسمعها المؤمنون منهم :

قول اليهود : عزير ابن الله ، وقولهم : يد الله مغلولة ، وقولهم : إن الله فقير ، وقولهم – مع النصارى – نحن أبناء الله ،احباؤه ، وكذلك يسمعون من النصارى : المسيح ابن الله ، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

ومن صور الأذى التي تسمع من الذين أشركوا قولهم في رسول الله ﷺ : ساحر ، مجنون ، كذاب .

- **قال السعدي** : وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد :

منها : أن حكمته تعالى تقتضي ذلك ، ليتميز المؤمن الصادق من غيره .

ومنها : أنه تعالى ، يقدر عليهم هذه الأمور ، لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر (قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) .

ومنها : أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك ، والصبر عليه إذا وقع ، لأنهم قد استعدوا لوقوعه ، فيهون عليهم حمله ، وتخف عليهم مؤنته ، ويلجأون إلى الصبر والتقوى .

(**وَإِنْ تَصْبِرُوا**) على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم ، من الابتلاء والامتحان ، وعلى أذية الظالمين .

(**وَتَتَّقُوا**) الله في ذلك الصبر ، بأن تنووا به وجه الله ، والتقرب إليه ، ولم تتعدوا في صبركم .

(**فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**) أي : من الأمور التي يعزم عليها ، وينافس فيها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ) .

الفوائد :

١- سنة الله في ابتلاء أوليائه .

٢- عداوة الكفار الدائمة للمؤمنين .

٣- الصبر والتقوى سبب للانتصار .